

سورة الممتحنة

هي مدنية ، وآيها ثلاث عشرة ، نزلت بعد الأحزاب .
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه ذكر هناك موالاة الذين ناققوا للذين كفروا من أهل الكتاب ،
وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لثلا يشبهوا المنافقين .
(٢) إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين
من المشركين .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا عَدُوِّيْ وَعَدُوَّكُمْ اَوْلِيَاءَ ، تُلْقُوْنَ
اِلَيْهِمْ بِالْمُوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوْا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُوْنَ الرَّسُوْلَ
وَإِيَّاكُمْ اَنْ تُوْمِنُوْا بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِىْ سَبِيْلِ
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِىْ ، تُسِرُّوْنَ اِلَيْهِمْ بِالْمُوَدَّةِ وَاَنَا اَعْلَمُ بِمَا اَخْفَيْتُمْ وَمَا اَعْلَنْتُمْ
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيْلِ (١) اِنْ يَتَّقُوْكُمْ يَكُوْنُوْا
لَكُمْ اَعْدَاءً وَيَسْطُوْا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ وَالسِّيْنَتَهُمْ بِالشُّوْءِ وَوَدُّوْا
لَوْ تَكْفُرُوْنَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ اَرْحَامُكُمْ وَلَا اَوْلَادُكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ (٣) .

شرح المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم
وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل

إيمانكم بالله ، ضل : أى أخطأ ، وسواء السبيل : أى الطريق المستوى وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الخدق فى إدراك الشيء وفعله ومنه رجل ثقِف ثقِف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لوثكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم وغيرهما «أن سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يندفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلتعة (مولى عبد الله بن حميد بن عبد العزى) فأعطاها عشرة دنانير وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، هذا صورته :

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم خذوا جذركم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع) فإن بها ظمينة (امرأة) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها واخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال على : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه وقال لها : أخرجى الكتاب ، أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فأحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأمواهم ، فأحببت إذ فاتنى النسب فيهم

أن أصطع إليهم يدايهم بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فنزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ » الآية .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) أي لا تجعلوا الكفار أنصارا وأعدوانا لكم .
ثم فسر هذه الموالاة فقال :

(تلقون إليهم بالموادة) أي تبايعونهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم التي لا ينبغي لأعدائه أن يطلعوا عليها من خطط حربية ، أو أعمال نافعة في نشر دينه وبث دعوته بسبب ما بينكم وبينهم من موادة .

ثم ذكر أن مما يمنع هذا الاتحاد أمرين :

(١) (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) أي وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذي أنزله عليكم ، فكيف بكم بعد هذا تجملونهم أنصارا وتسرون إليهم بما يفتعهم ويضر رسولكم ، ويعوق نشر دينكم .

(٢) (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) أي يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولا جرم سوى ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وقوله : « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » .

وفي هذا تهيبج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم ، ثم زادهم تهيبجا بقوله :

(إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي) أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ، باغين مرضاتي عنكم ، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقا عليكم وسخطا لدينكم .

ثم توعد من يفعل ذلك وشدّد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجر له فقال :
(ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) أي ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه فقد جار عن قصد الطريق التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى .

ثم ذكر أمورا أخرى تمنع موالاتهم فقال :

(١) (إن يتفقوكم بكونوا لكم أعداء) أي إن يظفر بكم هؤلاء الذين تسرون إليهم بالمودة بكونوا حرا با عليكم ويفعلوا بكم الأفاعيل .

(٢) (ويسطوا إليكم أيديهم وأستهم بالسوء) أي ويمدوا أيديهم وأستهم لقتالكم وأذاكم وسبكم وشتمكم ، فكيف تروئهم على هذه الحال وتتخذونهم أصدقاء وأولياء .

(٣) (وودّوا لوتكفرون) أي وتمنوا لوتكفرون بربكم ، لتكفونوا على مثل الذي هم عليه ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة .

والخلاصة — إن هؤلاء يودون لكم كل ضر وأذى في دينكم ودنياكم ، فكيف بكم بعد هذا تمدون إليهم حبال المودة ، وتوثقون عرا الإخاء ، فهذا مما لا يرشد إليه عقل ، ولا يهدى إليه دين .

ثم ذكر أن ما جعلوه سببا من المحافظة على الأهل والولد لا ينبغي أن يقدم على شؤون الدين فقال :

(إن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة) أي إن تنفعكم يوم القيامة أقرار بكم

ولأولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم ، وتقرَّبون إليهم محاماة عنهم — فتدفع عنكم عذاب الله إن عصيتموه في الدنيا وكفرتُم به .

ثم بين السبب في عدم نعيمهم فقال :

(يفصل بينكم) أى يفرِّق الله بينكم وبينهم بما يكون من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر كما قال : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، إِكْلُ أَمْرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أوعد من يفعل ذلك فقال :

(والله بما تعملون بصير) أى والله بأعمالكم ذو بصيرة بها ، لا يخفى عليه شيء منها ، فهو محيط بها جميعها ، ومجازيكم عليها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فاتقوا الله في أنفسكم واحذروه .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رُ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْحَمِيدُ (٦) .

شرح المفردات

الأسوة: (بضم الهمزة وكسرهما وبهما قرئ) من يؤتى به ، كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسمى ، برآء واحدم برىء كظرفاء وظريف : أى متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما تعبدون : أى الأصنام والكواكب وغيرها ، البغضاء : أى البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا بمذاب لانحتمله ، من قولهم : فتن الفضة : أى أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى محيئه ، ومن يتول : أى ومن يعص النصيحة .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين ، وذكر لهم الموانع التي تمنع من ذلك كإخراجهم من الديار ، وتمنى الكفر لهم ، وصددهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به ، وأنهم متى وجدوا سبيلا لأذاهم بقول أو فسكر سلكوه غير آبهين لصلوة رحم ولا قربى — أ كد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا برآء منكم ، قال القراء : يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ؟ لتعلم أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرا الإيمان .

الإيضاح

(قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله) أى قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين حين قالوا لقومهم الذين

كفروا بالله وعبدوا الطاغوت : أيها القوم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد .

تم فسر هذه البراءة بقوله :

(كفرنا بكم) أي جحدنا ما أتم عليه من الكفر ، وأنكرنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله ، فلا نعتد بكم ولا بآلهتكم ، فإن ما أتم عليه لا تقره العقول الراجحة ، ولا الأحلام الحصيفة ؛ فما قيمة الأحجار والأصنام التي تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضرر « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

(وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) أي وهانحن أولاء قد أعلننا الحرب عليكم ، فلا هوادة بيننا وبينكم ، وسيكون هذا دأبنا معكم ، لانترككم بحال حتى تتركوا ما أتم عليه من الشرك ، فتتقلب العداوة ولاية ، والبغضاء محبة .

(إلاقول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ ؛ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » .

والخلاصة — لاتجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة وتستغفروا لهم ، كما فعل إبراهيم لأبيه ، لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما مات على الكفر تبين

له ذلك ، فترك الاستغفار ، وأنتم قد استبانتم لكم عداواتهم بكفرهم بالرسول ، وإخراجكم من الديار ، فلا ينبغى أن تستغفروا لهم .

(وما أملك لك من الله من شئ) أى وليس فى وسعى إلا الاستغفار لك ، ولا أستطيع أن أنفك بأكثر من هذا ، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك فلا أدفعها عنك .

ثم أخبر عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبوءوا منهم ولجئوا إلى الله وتضرعوا إليه :

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أى ربنا اعتمدنا عليك فى قضاء أمورنا ، ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى ، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا ، وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب .

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقهم عليه .

(واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم) أى واستر لنا ذنوبنا بعفوك عنها ، إنك أنت الذى لا يضام من لاذ بجنايته ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفه بإيهم فيما فيه صلاحهم .

ثم أعاد ما تقدم مبالغة فى الحث على الانتساء بإبراهيم عليه السلام ومن معه .
(لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم ومن آمن معه من أتباعه المؤمنين ، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وجزيل ثوابه ، والنجاة فى اليوم الآخر .

وفى هذا تهيبج إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعض علىهما بالنواجذ ، وبيان أنهما ملاك الأمر كله يوم العرض والحساب .

ثم أوعد على تركهما بقوله :

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن أعرض عما ندبه الله إليه منكم

وأدبر واستكبر ، ووالى أعداء الله وألقى إليهم بالمودة فلا يضرن إلا نفسه ، فإن الله غنى عن إيمانه وطاعته ، بل عن جميع خلقه ، محمود بأياديه وآلائه عليهم .
ونحو الآية قوله تعالى : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ،
وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ، وَمَنْ
تَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) .

شرح المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبرؤهم : أى تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى العادلين ، وظاهروا : أى ساعدوا ، أن تولوهم : أى أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم .

المعنى الجملى

لما نهاهم عن موالاته الكفار وإلقاء المودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه — حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، والتشدد في معاداتهم

ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه —
أردف ذلك سبحانه بأنه سيفير من طبايع المشركين ، ويفرس في قلوبهم محبة الإسلام ،
فتمّ التوادّ والتصافي بينكم وبينهم .

وفي ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطيب لقلوبهم ، وقد أنجز الله
وعده ، فأتاح للمسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من
التحابّ والتوادّ ، ثم رخص لهم في صلة الذين لم يقاتلهم من الكفار ولم يخرجهم
من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم .

روى أحمد في جماعة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيبة بنت
عبد العزّي على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا — صناب (صباغ يتخذ من الخردل
والزبيب) وأقيطٍ وسمن وهي مشركة ؛ فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها ،
حتى أرسلت إلى عائشة رضى الله عنها أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
هذا فسأته فأنزل الله « لا ينهاكم الله » الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها
بيتها ؛ وقال الحسن وأبو صالح : نزلت الآية في خزاعة وبنى الحارث بن كعب وكنانة
ومزينة وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا
يقاتلوه ولا يعينوا عليه .

الإيضاح

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة ، والله قدير والله غفور
رحيم) أى لعل الله يجعل بينكم وبين أعدائكم من كفار مكة محبة بعد البغض ،
ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد العرة ، والله قدير على ما يشاء ، فيؤلف بين القلوب
بعد العداوة ، غفور لخطيئة من أتى إليهم بالمودة إذا تابوا منها ، رحيم بهم أن يعذبهم
بعد التوبة .

وقد تمّ ذلك بفتح مكة حين دخل المشركون في دين الله أفواجا ، وتمّ بينهم التصافى والتصاهر ، وكان بينهم أتم ما يكون من وثيق الصلات كما قال تعالى :
 « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ
 بِنِعْمَةِ إِخْوَانِكُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) وقال : (هُوَ
 الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
 مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .
 ثم أباح لهم صلة الذين لم يقاتلهم من الكفار فقال :

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم
 وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) أى لاينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفار
 الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ولم يعاونوا على إخراجكم ، وهم
 خزاعة وغيرهم من كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والإخراج
 من الديار ، فأمر الله رسوله بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم .

ثم زاد الأمر إيضاحا وبيانا فقال :

(إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على
 إخراجكم أن تولوهم) أى إنما ينهاكم عن موالاته الذين ناصبوكم العداوة فقاتلوكم
 وأخرجوكم أو عاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سعوا في إخراج
 المؤمنين ، وبعضهم أعان المحرجين .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

(ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لأنهم تولوا غير الذين يجوز لهم أن يتولهم ،
 ووضعوا ولايتهم في غير موضعها ، وخالفوا أمر الله في ذلك .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ،
 اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،
 لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا
 بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَاؤُكُمْ أَنْفَقُوا ، ذَلِكَ
 حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ
 شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبَّيْتُمْ فَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ
 مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ (١١)

شرح المفردات

فامتحنوهن : أى فاخبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لأستهن
 فى الإيمان ، علمتموهن : أى ظننتموهن ، إلى الكفار ، أى إلى أزواجهن الكفار
 أجورهن : أى مهرهن ، وعصم : واحدها عصمة ، وهى ما يعتصم به من عقد وسبب ،
 والكوافر : واحدهن كافرة : فما قبئتم : أى فكأنتم العقبي لكم ، أى الغلبة
 والنصر لكم ، حتى غنتم منهم .

المعنى الجملى

الكافر المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة :

(١) أن يستمر على عناده ، وإلى مثله أشار بقوله : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ » الآية .

- (٢) أن يرجى منه أن يترك العناد ، وإلى مثله أشار بقوله : « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً » .
- (٣) أن يترك العناد ويستسلم ، وإلى ذلك أشار بقوله : « إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ » الآية .

الإيضاح

(بأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) أي إذا جاءكم أيها المؤمنون النساء اللاتي نطقن بالشهادة ولم يظهر منهن ما يخالف ذلك — مهاجرات من بين الكفار فاختبروا حالهن ، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن ، أو هن منافقات ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للمتحنة : بالله الذي لا إله إلا هو ، ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، بالله ما خرجت التماساً لدنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

ثم ذكر جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ليتبين أن الامتحان يفيد معرفة الظاهر فحسب فقال :

(الله أعلم بما يكن منكم وهو يتولى السرائر ، وفي هذا بيان أنه لا سبيل إلى ما تطمئن إليه النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهم ، فإن ذلك مما استأثر الله بعمه .
فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار) أي فإن غلب على ظنكم إيمانهم بالخلف وغيره مما يورث اطمئنان قلوبكم على إسلامهن ، فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين .

ثم بين العلة في النهي عن إرجاعهن بقوله :

(لاهن حلّ لهم ولا هم يحلون لهن) أي لا للمؤمنات حلّ للكفار ، ولا الكفار يحلون للمؤمنات .

(وآتوهن ما أنفقوا) أي وأعطوا أزواجهن مثل ما أنفقوا من المهور .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أمر عليًا أن يكتب بالصلح فكتب : باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلمحوا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده إليه ، ومن جاء قريشا من محمد لم يرده إليه ، وأن بيننا عتيبة مكفوفة ، وأن لا إسلال ولا إغللال ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا جندل بن سهيل ، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من الرجال إلا رده في مدة العهد وإن كان مسلما ، ثم جاءت المؤمنات مهاجرات ، وكانت أولاهن أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط ، فقدم أخوها عمار والوليد فكلما في أمرها ليردها إلى قريش فنزلت الآية ، فلم يردها عليه الصلاة والسلام ، ثم أنكحها زيد بن حارثة .

وعن مقاتل أنه جاءت امرأة تسمى سديعة بنت الحرث الأسلمية مؤمنة ، وكانت تحت صيفي بن الزاهب وهو مشرك من أهل مكة فطلب ردها فأنزله سبحانه الآية فلم يردها وأعطاه ما أنفق ، وتزوجها عمر رضى الله عنه .

ومن هذا تعلم أن الآية بينت أن العهد الذى أعطى كان فى الرجال دون النساء ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات .

(ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن) أى ولا إثم عليكم ولا حرج فى نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات ، بشرط أن تتعهدوا بالمهور ، وتلتزموا بأدائها .

وإنما جاز هذا لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ، فكان من المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أسر أزواجهن .

(ولا تمسكوا بعصم الكوافر) أى إنه لا ينبغى أن يكون علاقة من علاقات .

الزوجية بين المؤمنين ونسائهم المشركات الباقيات في دار الشرك ، فلا يمنع نكاح إحداهن نكاح خامسة أو نكاح أختها ما دامت في العدة ، لأنه لا عدة لهن .

(واسألوا ما أنفقتم) أى وأسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم إذا ارتددن ولحقن بهم .

(وليسألوا ما أنفقوا) أى وليسألكم الكفار مهور نسائكم المهاجرات إليكم ، والمراد أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك .

(ذلكم حكم الله بحكم بينكم) أى ذلكم الذى ذكر هو حكم الله فاتبعوه ، يحكم به بينكم فلا تخالفوه .

(والله عليم حكيم) فلا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

(وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) أى وإن ذهبت أزواجكم مرتدات إلى دار الشرك ولم يعطوكم المهور اللاتى دفعت لهن ، ثم ظفرتهم بالمشركين وانصرتهم عليهم فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة مثل ما أنفقوا .

روى عن ابن عباس أنه يعطى الذى ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس أى قبل أن تقسم أخماسا ، كما هي القاعدة في تقسيم الغنائم كما تقدم في سورة الأنفال . (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى وخافوا الله الذى أنتم به مصدقون ، فأدوا فرائضه ، واجتنبوا نواهيه .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَىٰ آلَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا
وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ
بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْنَّ وَأَسْتَفْزِرْنَ
لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

شرح المفردات

يباعنك : أى يلتزم لك الطاعة ، ولا يقتلن أولادهن : أى ولا يئدن البنات والمراد بالبهتان المقتري بين أيديهن وأرجلهن : الولد الذى كانت ألصقته بزوجها كذبا ، والافتراء : الكذب ، فى معروف : أى فى أمر برّ وتقوى ، فباعين : أى فالتزمهن ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

المعنى الجملى

روى البخارى عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ - إلى قوله : غَفُورٌ رَحِيمٌ » فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد بايعتك » كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة فى المبايعه قط ، ما بايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك . وروى أحمد عن أميمة بنت رقية التيمية قالت : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : أَلَّا نَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئاً - حتى بلغ - وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَقَالَ : فَمَا اسْتَطَعْتِ وَأَطَقْتِ ، قَلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، قَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَلَّا تَصَاحُنَا ؟ قَالَ إِنِّي لَا أَصَاحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةً قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ » .

الإيضاح

أى أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات مقدمات لك الطاعة ، ملتزمات ألا يشركن بالله شيئاً من صنم أو حجر ، ولا يسرقن من مال الناس شيئاً ، ولا يزنين ، ولا يئدن البنات كما كنّ يفعلن ذلك فى الجاهلية ، ولا يلصقن أولاد

الأجانب بأزواجهن كذبا وبهتاناً ، ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه كالنوح وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيوب وحش الوجوه ، وألا تخلوا امرأة بغير ذى رحم محرم - فبايعهن على ذلك ، والتزم لمن الوفاء بالشواب إن هن أطعنك في كل ذلك ، واطلب لمن المغفرة من الله ، إنه هو الغفور الرحيم لمن إذا وقين بما بايعن عليه .

وعن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت : « جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عليها : أَلَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَمْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ » الآية ، قال فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت فنعم ، فبايعها بالآية » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَلْبَسُوا مِنَ
الْآخِرَةِ كَمَا يَلْبَسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) .

شرح المفردات

غضب الله عليهم : أى طردهم من رحمته ، من الآخرة . أى من ثوابها ونعيمها ، من أصحاب القبور . أى من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون بيعث ولا نشور .

المعنى الجملى

نعى سبحانه أول السورة عن موالاته المشركين ، وذكر الموانع التي تمنع من موالاتهم ، ثم أوعد على ذلك ، ولما كان الأمر في ذلك جد خطير في سياسة الدولة

الإسلامية ونشر الملة - كرر النهى عن موالاتة الكافرين مرة أخرى ، يهودا كانوا أو نصارى ، ليكون عظة وذكرة لحاطب بن أبى بلتعة ومن ناحجه ممن يفضلون توثيق الصلوات الدينوية على مصلحة الدعوة الدينية ، ويجعلون شئون الدنيا مقدمة على شئون الدين .

روى أن قوما من فقراء المؤمنين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المساهين ، ليصيبوا من ثمارهم فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم) أى لاتتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته - أولياء لكم وأصدقاء تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ، ويجول دون تقدم شئون الملة .
ثم بين أوصافهم ومعتقداتهم فقال :

(قد يؤسوا من الآخرة كما يؤس الكفار من أصحاب القبور) أى قد يؤسوا من خير الآخرة وثوابها ، اعنادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشر به فى كتابهم ، المؤيد بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات : فوم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له وعلموا أن لاسبيل لهم لنيل نعيمها ، كما يؤس الكفار من بعث موتاهم ، لأنهم لايعتقدون ببعث ولا نشور .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) النهي عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك .
- (٢) ضرب المثل بقصص إبراهيم وقومه .
- (٣) امتحان النساء المؤمنات المهاجرات وعدم إرجاعهن إلى دار الكفر .
- (٤) مبايعة النساء المؤمنات في دار الإسلام .
- (٥) تأكيد النهي عن موالاة المشركين ، حرصاً على شؤون الملة ، ونشر الدعوة .